

أحرار وقيود (1): طلائع الأسرى الفلسطينيين في سجون الإنجليز (1917-1919)

عوني فارس، فلسطين

"إنَّ هذا اليوم عند أولئك الأسرى وذويهم ليوم عظيم... سيجتمع الناس في بيوت أولئك الأسرى لتهنئتهم... استطلاع أخبارهم... منذ تركوا بيوتهم إلى أن رجعوا... ما هي المعارك التي شهدوها ومن سقط من إخوانهم قتيلاً... ومن جرح ومن نجا... وكيف كانت حالتهم في الأسر؟ وسيسأل أولئك الأسرى المئات من الأسئلة. من مات ومن عاش من ذويهم وأهل بلدهم. سيسألون عن حقولهم وأبقارهم وأغنامهم ودجاجاتهم. وسائر ما يملكون. فمنهم من يبكي ومنهم من يفرح. سيكون لرجوع الأسرى ضجة كبيرة في طول البلاد وعرضها. ستقام ولائم وستقام مآتم. ولا بد أن تشتغل الصحافة وقتاً طويلاً في أخبار هؤلاء الأسرى، ثم تندمل الجراح وترقِّ الدموع، ويتناسى الناس الحرب وويلاتها، ويرجعون إلى حالتهم القديمة."

إفراجات العام 1919- يوميات خليل السكاكيني، ج1، ط2، 852-853

مقدمة

تسعى هذه الورقة إلى تسليط الضوء على بواكير التجربة الاعتقالية للفلسطينيين في سجون الاحتلال البريطاني بين عامي (1917-1919)، وتحاول التعرّف على أوائل المعتقلين، والكشف عن حيثيات اعتقالهم، وأماكن احتجازهم، والحياة داخل السجون، إضافة إلى تتبّع ردود فعل أهاليهم، والظروف التي أفضت إلى إطلاق سراحهم. وقد حدّدت الورقة هذا التاريخ، لخصوصية هذه الفترة الزمنية، فهي تشكّل بداية خوض الفلسطينيين تجربة الأسر في سجون الإنجليز في لحظة انكسار كبرى للمنطقة وأهلها، وفي فترة شكّلت امتداداً للحرب العظمى وتداعياتها، وغالباً ما طُمتت معاناة هؤلاء الأسرى، وغدت، في أحسن الأحوال، هامشاً صغيراً في متن كبير: فلم يُذكر في الأبحاث والدراسات إلاّ لماماً، وباتوا "غُفلاً من الذكر.. عطلاً من دعاء أو رثاء"، وأصبح أغلبهم أسرى بلا أسماء... نكراتٍ ومجهولين، أو مجرد أرقام.

وقد جاءت هذه الفترة انتقاليةً قبيل اندلاع موجات من الثورات المتتالية في وجه بريطانيا والمشروع الصهيوني،

حيث اتسمت مرحلة الثورات بتعزيز الإنجليز لقبضتهم الأمنية، وتكريس الاعتقال باعتباره خياراً مركزياً في مواجهة الفلسطينيين، ومدمكاً في تاريخهم خلال أكثر من قرن من الزمان، وأحد عناوين المعاناة الفلسطينية والصبر عليها في آنٍ معاً. فخلال ثورة العشرين اعتقل الإنجليز أكثر من مئة وخمسة أشخاص في القدس وحدها،¹ ناهيك عن الاعتقالات في الشمال الملتهب في ربيع وصيف ذلك العام،² واستمرت الاعتقالات تباعاً حتى خاض مئات آلاف الفلسطينيين التجربة. وعلى سبيل المثال، قُدِّر عدد الأسرى في ثورة البراق بنحو 900 فلسطيني،³ وتساعد عددهم أثناء الثورة الفلسطينية الكبرى بين عامي (1936-1939) بصورة حادّة، إذ تراوح ما بين 264000-528000 شخص،⁴ وهذا عدد كبير جداً، خصوصاً إذا علمنا أنّ عدد الفلسطينيين في ذلك الوقت لم يتجاوز مليوناً وخمسة وثلاثين ألفاً وسبعمائة نسمة (باستثناء اليهود).⁵ وقد استمرت سياسات الاعتقال حتى خروج القوات البريطانية من فلسطين في 15 أيار/ مايو 1948.

اعتقالات الحرب... أول الأسرى... أول الضحايا

بدأ المحتلّ البريطاني استخدام سياسة الاعتقال منذ اليوم الأول الذي وطأت فيه أقدام جنوده فلسطين، وقبل أن تسقط كلُّها بيده أواخر سنة 1918. حينئذٍ، كان الاعتقال جزءاً أساسياً من إستراتيجية هدفها قمع توجُّهات الفلسطينيين الوطنية وإخضاعهم لرغبات لندن وتطلّعاتها. وقد خاض تجربة الاعتقال في مرحلتها الأولى عدد من الفلسطينيين من مختلف الفئات والاتجاهات، وأبعد الإنجليز بعضهم إلى مصر، حيث أُجبر كثيرون على قضاء شهور طويلة في السجون المصرية في القاهرة والإسكندرية كما سُنرى في السطور اللاحقة.

لا نعرف، على وجه الدقّة، من هو أول أسير فلسطيني في سجون الإنجليز في بداية عهدهم البائد، ولا متى أُسر وأين، ولا مكان احتجازه، وكيف كانت ليلته الأولى في الأسر، وكيف تعامل الإنجليز معه؟ وهل تعرّض للتعذيب، وهل وفّر له السجّانون الطعام واللباس والدواء، وهل سمحوا له بممارسة بعض الرياضات العقلية والبدنية، وكيف تدبّر أمره، وكيف أمضى نهاره وليله، وهل أقدم، مع من لحق به من الفلسطينيين، على خطوات لنيل بعض حقوقهم المعيشية داخل المعتقلات؟ وكيف كانت مشاعرهم وقد انزعوا من مدنهم وقراهم؟ وهل تمكّنوا من التواصل مع ذويهم، ومن منهم لقي ربه مظلوماً داخل الزنازين الإنجليزية دون أن يتمكّن من وداع أهله وأصحابه، ومن منهم طبعت تجربة الأسر على روحه وجسده ندوباً لم يشف منها طوال حياته؟

وعلى الرغم من ذلك، يمكن التّأريخ للتجربة الاعتقالية للفلسطينيين في سجون الإنجليز مع بداية تقدم الجيش البريطاني على جبهة فلسطين، فقد أسّر الإنجليز آلاف العثمانيين إثر احتلالهم جنوب فلسطين ووسطها، وكان من بين الأسرى فلسطينيون.⁶ وقد تمكّن عدد من الجنود الفلسطينيين من تجنّب الوقوع في قبضة عدوهم، حيث احتضنهم الريف، وتخفّوا باللباس العربي،⁷ وأسّروا آخرون أثناء مشاركتهم في القتال ضدّ الحلفاء على الجبهات خارج فلسطين، ولكن لا تتوفر معلومات دقيقة عن أسماء هذه الفئة من الأسرى ولا أعدادهم، ولا أماكن احتجازهم. ومن الأمثلة النادرة المشهورة: الأسير عارف العارف،⁸ الذي اعتقل أثناء معركة ضارية في

أرضروم على جبهة القفقاس، وقد دوّن العارف ما عايشه في معسكر الاعتقال، ويوني غوردوق في كراسنوبارسك قرب شواطئ نهر ينيسي في أواسط سيبيريا.⁹ ومن اللافت تَمَكَّن العارف من إرسال رسائل إلى أهله وتلقّي أجوبة منهم عبر الهلال الأحمر العثماني.¹⁰ ومن الأسرى، أيضاً، الأسير صبحي الخضراء،¹¹ الذي قاتل على جبهتي سيناء وقناة السويس.¹² وكان لحسين الخالدي¹³ أخوان أسيران، أحدهما محتجز في سجن في مدينة سامربور في الهند، والآخر في سجن في مصر.¹⁴

لسنا على دراية إن كان الأسرى الفلسطينيون قد تلقوا تدريباً قَبلياً على كيفية التصرف في حال الوقوع في قبضة الإنجليز، وهل امتلكوا مهارات ساعدتهم في الصمود في ظلّ ظروف الأسر القاسية، خصوصاً من كان منهم عنصراً في الجيش العثماني،¹⁵ أو موظفاً حكومياً؟ وهل كان لبعضهم تجارب سابقة احتكوا فيها بالإنجليز أو سجنوا في سجونهم في مصر، أو تناهى إلى مسامعهم شيء عنها؟ وهل يمكن أن يكون الطلاب الملتحقون بالجامعات المصرية،¹⁶ أو التجّار الذين اعتادوا السفر إلى مصر قبل اندلاع الحرب العظمى قد سمعوا من زملائهم المصريين عن سجون الإنجليز، أو جرّبوها بأنفسهم، فكانت تلك المعرفة زاداً لهم عند تعرّضهم للأسر؟

سقوط المدن والبلدات الفلسطينية واعتقال بعض أعيانها

شَنّ الإنجليز حملة اعتقالات في المدن والبلدات الفلسطينية التي استولوا عليها، وعملوا على إبعاد المعتقلين إلى مصر. وقد كان الإبعاد شديد الوطأة على الأسرى وذويهم نظراً لبعده المسافة بين مكان احتجاز الأسير ومكان إقامة ذويه، وانقطاع التواصل، ما يعني شعوراً دائماً بالقلق. هذا بالإضافة إلى إمكانية تعرّض الأسير وأهله لسلسلة من الإشاعات والأخبار الواهية الهادفة إلى ضرب الروح المعنوية ونشر اليأس.

للأسف لا توجد معلومات كافية في المصادر التي اطلّعنا عليها عن أسماء الأسرى وأعدادهم وظروف اعتقالهم سوى بعض الأمثلة المتناثرة في كتب المذكرات واليوميات وبعض الدراسات، منها اعتقال بعض علماء الشرع والأعيان والوجهاء، مثل الشيخ سليم أبو الإقبال اليعقوبي،¹⁷ مفتي يافا وأحد أعيانها، وقد أبعده الإنجليز إلى مصر ليقضى فترةً في سجن سيدي بشر في الإسكندرية.¹⁸ وقد ذكر السكاكيني في يومياته أنه كان مناهضاً لبريطانيا أثناء الحرب.¹⁹ وكذلك عمر البيطار،²⁰ رئيس بلدية يافا، الذي نفاه الإنجليز إلى مصر،²¹ وأودعوه في سجن عسكري في القاهرة ثم في الإسكندرية، حيث بقي عاماً كاملاً إلى أن عاد إلى يافا في العام 1921.²²

وقد شرع الإنجليز بتنفيذ حملة اعتقالات في مدينة نابلس فور دخولها شملت جنوداً وموظفين عثمانيين، وقد أرسلوهم "إلى مصر زُمرًا."²³ ولنا أن نتصوّر مقدار الشدّة وحجم الألم الذي مرّوا فيه أثناء اقتيادهم إلى السجون الإنجليزية في مصر بعد سقوط المدينة. كما اعتقلوا عدداً آخر من علماء الشرع والوجهاء منهم "الشيخ سعيد الكرعي، والشيخ رفعت تفاحة، وعبد الفتاح آغا طوقان، والشيخ عبد الغني عفانة (سلفيت)، وفايق أفندي العنبتاوي، والشيخ مصطفى أبو السعود (رفيديا)، والشيخ صالح صادق الحمد (عظموط)، ورضى أفندي القاسم

وأحمد الشريد (صير)، والحاج حامد الجودة وولده خضر (عراق التايه)، والشيخ إسماعيل الخطيب (عين كارم)، وقد أرسلوا إلى مصر حيث اعتقلوا ثلاثة عشر شهراً.²⁴ ويشير هذا العدد الكبير من المعتقلين إلى أن نابلس كانت حين احتلالها مقرّاً رئيسياً للعثمانيين بعد سقوط القدس، إذ استقبلت عدداً كبيراً من ضباط وجنود الجيش العثماني المنسحبين من القدس، وبقيت كذلك حتى سقوطها في 11 أيلول/ سبتمبر 1918، كما أنه يعطي انطباعاً أولياً عن الخلفية الفكرية والمناطقية لطلائع الأسرى الفلسطينيين في تلك المرحلة.

ومن المعتقلين في مدينة القدس عبد الفتاح درويش،²⁵ وهو من وجهاء ريف القدس، الذي اعتقل في الأسبوع الأول من الاحتلال الإنجليزي حيث قضى في المسكوبية خمسين يوماً، ثم نُقل إلى سجن خان العظام في الرملة، ثم نُقل إلى رفح، ثم سُجن في سجن القناطر في القاهرة المعدّ سلفاً لاستقبال أسرى الحرب العثمانيين، وقد أمضى في الاعتقال تسعين يوماً.²⁶ وكذلك محمود الصالح من قرية القبيبة القريبة من القدس الذي اعتقل أثناء القتال، وأُبعد إلى مصر وقضى زمناً في سجونها.²⁷ واعتقل الإنجليز أيضاً اثنين من وجهاء مدينة البيرة، هما رشيد العلي زعيم عائلة القرعان وعامر محمد العامر زعيم عائلة الطويل،²⁸ وذلك بعد أن أبديا، بجرأة لافتة، معارضتهما للاحتلال البريطاني أمام حاكم القدس الإنجليزي رونالد ستورز، واقتيدا إلى مصر، وبقيها هناك حتى تحرراً في شهر شباط/ فبراير 1920.²⁹

إطالة على التجربة الاعتقالية

تشير المصادر إلى القليل من المعلومات حول تجارب المعتقلين الفلسطينيين في تلك المرحلة، ويبدو أنّ أغلب الأسرى لم يرغبوا في تسجيل ما جرى معهم. وقد ساهم تعطيل الصحف في التعتيم على هذه التجربة، ناهيك عن انهماك الناس في معالجة آثار الحرب العظمى، وحالة الترقّب التي اتّسمت بها تلك المرحلة. وعلى حدّ علمنا، لم يقد أحد من المؤرخين أو الباحثين بجهود توثيقي في هذا المضمار، ولعلّ هذه التجربة لم تكن في أولويات المؤرخين والباحثين الذين كانوا مدفوعين للكتابة عمّا هو أعظم وطأة وأشدّ هولاً مما سيشهده الفلسطينيون في المراحل اللاحقة. ونشير هنا إلى أنّ أوائل المحاولات التوثيقية للتجارب الاعتقالية في سجون الإنجليز جاءت في العام 1920، واختصّت باعتقالات ثورة العشرين،³⁰ أي أنّها كانت لاحقة على الفترة الزمنية التي تركّز عليها هذه الورقة.

ومن نتف أخبار الأسرى التي شاعت بين عامي (1917-1919) أنّ الجيش البريطاني يعامل الأسرى معاملة سيئة، وأنّه يقوم بقتل من هم من سنجق القدس،³¹ وهذا وارد خصوصاً أثناء اشتداد المعارك. وقد نقل السكاكيني شهادة صديقه الأسير محمود صالح التي أشار فيها إلى أنّ الإنجليز عاملوهم معاملة سيئة.³² وبعاض هذه الشهادة ما جرى مع الشيخ محمد رفعت تفاعاً،³³ الذي شدّد الإنجليز عليه في المعتقل، ورفضوا إطلاق سراحه إلا بكفالة مالية دفعها محمد نمر النابلسي.³⁴ كما تعرّض المعتقلون لحملة تبشير، حيث ذكر النمر في تاريخه أنّ الشيخ سعيد الكرمي³⁵ تصدّى للمبشرين أثناء سجنه فأفحمهم.³⁶

لقد كانت بريطانيا تعبرّ بسجن الفلسطينيين، خصوصاً الزعامات الوطنية المحليّة المعارضة لها، عن رغبتها في

الانتقام منهم، مع علمها أنهم يمثلون حال الغالبية الصامتة من شعب فلسطين. وفي الوقت نفسه قامت بريطانيا باستمالتهم ضمن سعيها لتأهيل زعامة جديدة موالية لها،³⁷ بالإضافة إلى إقناعهم بالولاء للحلفاء، ليتّم إلحاقهم بالقوّات العربية الموالية لبريطانيا "ففضّل قسم منهم البقاء في الأسر، والتحق بالثورة من التحق بدافع الغيرة والحمية والحماس الوطني أو تخلّصاً من عبودية الأسر ومهانتها، كما التحق الآخرون طمعاً في الراتب يدفع لهم باللبيرات الذهبية."³⁸ ويبدو أنّ بريطانيا تمكّنت من انتزاع بعض المعلومات من أفواه بعض المعتقلين،³⁹ استفاد منها جيشها أثناء زحفه الدامي على فلسطين. ومن الإشارات التي تدعم هذا الافتراض ما ذكره مؤرخ نابلس أنّ الجيش البريطاني دخل المدينة وفي يده معلومات عن الأشخاص المؤيدين للعثمانيين.⁴⁰

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي تعرّض لهم الأسرى، إلا أنّ بعضهم تمكّن من إرسال الرسائل لذويهم وأصدقائهم، فذكر السكاكيني في يومياته أنّه استلم رسالة من صديقه محمود الصالح، في 18 كانون الثاني/يناير 1918 من محلّ أسره في مصر.⁴¹ لكنّ الرسائل كانت تصل متأخرة، ومن الأمثلة على ذلك أنّ الأسير الدكتور قطان،⁴² المسجون في مصر أرسل رسالة إلى زوجته أثناء إقامتها في دمشق في الأول من كانون الأول/ديسمبر 1917، تسلّمها في تموز/يوليو 1918.⁴³

وضعت الحرب أوزارها لكن الاعتقالات استمرّت

شملت الاعتقالات عدداً من الفلسطينيين العائدين إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب. ومن الأمثلة على من تعرّضوا للأسر بعد عودتهم الشيخ أسعد الشقيري،⁴⁴ الذي كان عائداً من تركيا، إذ ما إن نزل في ميناء حيفا، حتى تمّ احتجازه، واقتيد إلى مصر. ووفق شهادة ابنه، فإنّ الإنجليز حرّضوا عليه وطلبوا من الأهالي تقديم شكاوى ضده، وتأثر الناس بسبب الدعاية البريطانية والحالة الصعبة التي وصلوا إليها بعيد سقوط فلسطين، فقاطعوا أهل بيت الشقيري. وزاد من ضنك العائلة تكرار الإشاعات بقرب إعدام الشقيري، بينما كان مسجوناً في معتقل أبي قير بالقرب من مدينة الإسكندرية، حيث بقي أربعة عشر شهراً، إلى أن تمكّن من العودة إلى مدينة عكا في العام 1921، وبقي بضعة شهور يثبّت وجوده لدى السلطات الأمنية البريطانية.⁴⁵ وموسى العلمي ممن اعتقلوا إثر عودتهم،⁴⁶ وهو الذي أوقف مع والده بُعيد وصوله إلى ميناء يافا في كانون الثاني/يناير 1919، وقد أطلق الإنجليز سراح والده، وتحفّظوا عليه، إلى أن نجحت تدخّلات آل الدجاني في إطلاق سراحه. ووفق رواية العلمي نفسه، فقد مكثّ مستجوباً عدّة أسابيع إلى أن تُرك.⁴⁷ والغريب أنّ السكاكيني، صديق موسى الحميم، لم يُشر إلى اعتقاله أو استجوابه، واكتفى بالقول إنّ عائلة العلمي عادت إلى فلسطين وإنّه ذهب للسلام عليها.⁴⁸ فهل جرى تضخيم حادثة توقيف العلمي لتبدو اعتقالاً أو استجواباً طويلاً رغبة في تبييض صفحته؟

لقد استمرّت الاعتقالات في صفوف الفلسطينيين، ولكن وتيرتها كانت ضعيفة، ويبدو أنّها ارتبطت بأحداث ميدانية، على أنّ المصادر لا تُعطي إلا القليل من المعلومات. وعلى سبيل المثال، فقد ذكر عبد الوهاب الكيالي أنّ السلطات البريطانية كانت قد اعتقلت عربيين تصدّياً لمظاهرة صهيونية في الذكرى السنوية الأولى لوعد بلفور،

وقد حكم البريطانيون على العربيين بالسجن أربعة أشهر.⁴⁹ ونقلت بعض المصادر أنَّ السلطات البريطانية اعتقلت عناصر من جمعية سرّية تُدعى "الإخاء والعفاف" في العام 1919، اجتمع أعضاؤها على كراهية الإنجليز، وكانوا يخطّون لاغتيال من يتعاون مع الحركة الصهيونية ويبيعها الأراضي، وكان من أبرزهم محمود الدبّاغ الملقب بـ"أبي سعد". وقامت أيضاً بنفي ثلاثة من أعضاء الجمعية إلى مصر،⁵⁰ كما قامت باعتقال الشيخ نعمان القدوة،⁵¹ من مدينة غزة، الذي اعتبرته خطراً على أمنها.⁵²

وفي هذا السياق، ذكر واصف جوهرية حوادث اعتقال جرت في القدس على خلفية ظاهرها المساس بممتلكات جيش الاحتلال مثل اعتقال (أبو ناصيف) (قواس البطريك ذميانوس)، الذي اتُّهم بلبس بستان عسكري من أموال الجيش البريطاني، واعتقال أحمد ابن أبو عيد الدلال الذي اتُّهم بسرقة أموال من الجيش.⁵³ وأشار السكاكيني إلى حوادث شبيهة مثل اعتقال سعيد الشوّا،⁵⁴ وابنه رشدي،⁵⁵ لوجود أدوات حديدية وخشبية تابعة للجيش البريطاني بحوزتهما.⁵⁶ وقد ألبسوا الثوب الأزرق، وسبق الأب مشياً على الأقدام ومكبلاً بالحديد،⁵⁷ وزجَّ الإنجليز "الابن في السجن (و) يعمل مع سائر السجناء بالأشغال الشاقّة"،⁵⁸ وقد حكمت المحكمة على الأب بثلاثة أشهر مع الأشغال الشاقّة. ووفق **يوميات السكاكيني**، فإنّه كان "ينقل الماء في بيت كنيروفيتش وابنه رشدي يسعى الآن في القدس في إطلاق سراح أبيه، وقد ساعدته الجمعية الإسلامية المسيحية، ولكن الأعضاء الأرثوذكس امتنعوا عن توقيع المضبطة، لأنّهم يرون أنّهم لا دخل لهم بذلك."⁵⁹ ويبدو أنّ ماضي الشوّا، المقرّب من سلطة العثمانيين،⁶⁰ قد لعب دوراً في اعتقاله.⁶¹ ومن الأمثلة، أيضاً، اعتقال عمر الصالح البرغوثي،⁶² وأخيه.⁶³ ويعتقد السكاكيني أنّ الخلفية الحقيقية وراء اعتقال البرغوثي كانت معارضته محاولات بعض "صعاليك رام الله والبيرة" فحمل "أهل القرى على توقيع مضابط بطلب إنكلترا للوكالة علينا فكانوا إذا جاؤوا إلى قرى بني زيد قال لهم الناس: لا بدّ أن نستشير عمر أفندي، فما كان من الصعاليك إلا أن رفعوا الأمر إلى حاكم رام الله."⁶⁴ ومن المعتقلين أيضاً عبد القادر العلمي، وهو من وجوه المدينة المقدّسة، وقد نفته السلطات البريطانية.⁶⁵

وممّا كان دارجاً في تلك المرحلة تدخّل مؤسسات محلّية وشخصيات اعتبارية لإطلاق سراح المعتقلين، كما في تدخل الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس لإطلاق سراح سعيد الشوّا،⁶⁶ وجهود كامل الحسيني مفتي الديار المقدسية،⁶⁷ وعزّة باشا العابد في إطلاق سراح المعتقلين في أكثر من مناسبة.⁶⁸ وربما كان نجاح هذه المؤسسات والشخصيات في إقناع السلطات البريطانية بإطلاق سراح بعض الأسرى عائد إلى حداثة الوجود الإنجليزي في فلسطين، وعدم استكمال بناء الهيئات والدوائر القانونية والإدارية، والهامش الكبير الذي أعطي للحكام العسكريين في إدارة مناطقهم، ومحاولتهم الظهور بمظهر تلبية طلبات الناس، وسعيهم لاستمالة تلك المؤسسات والشخصيات أملاً في مساعدتها في فرض الأمن والهدوء.

الفرحة المؤقتة: أولى الإفراجات من سجون الاحتلال البريطاني

بدأت موجة من الإفراجات عن عدد كبير من المعتقلين الفلسطينيين في أواخر حزيران/ يونيو 1919، ووفق

مذكرات السكاكيني المكتوبة في 30 حزيران/ يونيو 1919، فقد "ابتدأت الحكومة الإنجليزية تطلق سراح الأسرى العرب، فجاء اليوم منهم عدد كبير إلى القدس".⁶⁹ وذكرت مجلة **النفائس العصرية** أنَّ اثني عشر ضابطاً عربياً عادوا إلى القدس من محلّ احتجازهم في مصر، حيث كانوا معتقلين أثناء الحرب.⁷⁰ وتمّ الإفراج عن بقية الأسرى ووصولهم إلى القدس في الخامس من تموز/ يوليو.⁷¹ وقد سبق هذه الإفراجات جملة تطوّرات دولية ساهمت في تهيئة الجو لإطلاق سراح الأسرى، مثل عقد مؤتمر الصلح في أوائل العام 1919، وتوقيع معاهدة فرساي في 28 حزيران/ يونيو، وما تبع ذلك من قرارات بريطانية تصبّ في خانة الولوج في مرحلة ما بعد الحرب، ومنها: إصدار أمر بتسريح الجنود الأتراك الأسرى لديها،⁷² ورفع المراقبة عن الرسائل والتلغراف في سوريا وفلسطين،⁷³ كما أنها جاءت بعد مطالبات فلسطينية بالإفراج عن "الأسرى السياسيين".⁷⁴ وقد كان ممّن نال حرّيته في تلك الإفراجات الشيخ إبراهيم الدنف،⁷⁵ وقد كان معتقلاً بتهمة التخابر مع العثمانيين،⁷⁶ ومحمود صالح (من قرية القبيبة)،⁷⁷ وكامل البديري الذي أمضى تسعة أشهر في معتقلات مصر.⁷⁸

وفي هذا السياق، علّق السكاكيني على أول موجة من الإفراجات تشهدها فلسطين، بشكل لافت بالقول: "إنّ هذا اليوم عند أولئك الأسرى وذويهم ليوم عظيم... سيجتمع الناس في بيوت أولئك الأسرى لتهنئتهم... استطلاع أخبارهم... منذ تركوا بيوتهم إلى أن رجعوا... ما هي المعارك التي شهدها، ومن سقط من إخوانهم قتيلاً... ومن جرح ومن نجا... وكيف كانت حالتهم في الأسر؟ وسيسأل أولئك الأسرى المئات من الأسئلة. من مات ومن عاش من ذويهم وأهل بلدهم. سيسألون عن حقولهم وأبقارهم وأغنامهم ودجاجاتهم. وسائر ما يملكون. فمنهم من يبكي ومنهم من يفرح. سيكون لرجوع الأسرى ضجة كبيرة في طول البلاد وعرضها. ستقام ولائم وستقام مآتم. ولا بدّ أن تشتغل الصحافة وقتاً طويلاً في أخبار هؤلاء الأسرى، ثم تندمل الجراح وترقّ الدموع، ويتناسى الناس الحرب وويلاتها، ويرجعون إلى حالتهم القديمة."⁷⁹

خاتمة

حاولت هذه الورقة الوقوف على بداية تجربة الفلسطينيين مع الاعتقال في ظل الاحتلال الإنجليزي، باعتباره أحد تجلّيات الجبروت الاستعماري ومقاومته في آنٍ معاً. وقد تركّزت الاعتقالات في البدايات في جبهات القتال، وكان الضباط والجنود في الجيش العثماني من أوائل المعتقلين. ومع سقوط المدن جرت أولى الاعتقالات لعلماء الشرع باعتبارهم الأكثر قرباً من عامة الناس والقادرين على تحريكهم، والأكثر توجُّساً وقلقاً من الاستعمار و"حداثته" الوافدة، بالإضافة إلى مجموعة من الموظفين في الدوائر الحكومية والهيئات المحلية، مثل القضاة والمفتين ورؤساء البلديات والمخاتير. وقد كانت تلك الاعتقالات ضمن سياسة هدفها ضرب البنى الإدارية الموالية للعثمانيين، واستكمال جمع المعلومات عن المجتمع الفلسطيني، ورغبة في ممارسة سياسة التقريب والإقصاء. كما اعتقل الإنجليز مجموعة من العائدين إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب، يعتقد أنّ أغلبهم كان لهم علاقة بالحكومة السابقة، ثم أنّجعت الاعتقالات إلى جيل الشباب القادرين على حمل السلاح، وتنظيم الفعاليات

الجماهيرية، في محاولة لضرب أيّ جذور للمقاومة الميدانية.

وعلى الرغم محاولات الإنجليز المبكرة استثمار الاعتقالات لإخافة الفلسطينيين، كما فعل حاكم القدس العسكري المستر ستورس الذي استدعى في السادس من نيسان/ أبريل 1919 عشرة أشخاص من وجهاء القدس، وخوّفهم من مصير مشابه لمصير عبد القادر العلمي إن لم يلتزموا بسياسات بريطانيا،⁸⁰ إلا أنّ تطوّر الأحداث أكّد فشل هذه السياسة. وقد كان لافتاً أنّ أهوال السجن وعذابه، وإن ساهمت في إعاقة قدرات المقاومة ميدانياً في بعض المحطّات، إلا أنّها لم تتمكّن من إخماد جذوة المقاومة في نفوس الناس، وأثبت الفلسطينيون قدرتهم على تجاوز محنة الأسر، وأنّ روح التحديّ لديهم قادرة على التجدّد. وقد كان مثيراً أنّ بعض الأسماء المناضلة التي أودعت السجن في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المقاومة تكرّرت ملاحظتها أو

ملاحظة أبنائها أو كليهما معاً حتى العام 1948 وربما بعده

الإحالات

- [1] مرآة الشرق، 21 نيسان 1920. وكان من بين المعتقلين عدد من اليهود.
- [2] اتّسمت تلك الفترة بعمليات عسكرية ضدّ أهداف صهيونية وإنجليزية، نُفّذت في الأغوار، لا سيّما بيسان وما حولها. انظر: وليد الخالدي (تحرير وتقديم)، محمد عزة دروزة 1305-1404هـ/1887-1984: سيرة ذاتية مقتطفة من مذكراته- الجزء الأول (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 2023)، 104-106؛ خليل البديري، الدكتور خليل البديري يتذكّر: تاريخ ما أغفله التاريخ ستة وستون عاماً مع الحركة الوطنية الفلسطينية وفيها (القدس: منشورات صلاح الدين، 1982)، 21.
- [3] هيئة الموسوعة الفلسطينية، الموسوعة الفلسطينية، المجلد العام، المجلد الأول (أ-ث) (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط1، 1984)، 616.
- [4] ماثيو هيوز، الاستعمار البريطاني وإجهاض الثورة العربية الكبرى في فلسطين (1936-1939) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2021)، 339. يبدو الفرق كبيراً بين الرقمين، وهذا له أسبابه، منها حساب عدد الذين اعتقلوا لأيام، وافترض وجود أعداد كبيرة من المعتقلين غير المسجّلين في الإحصائيات الرسمية.
- [5] المصدر نفسه، 336-337.
- [6] أشار أكثر من مصدر إلى أسرى الحرب من الضباط والجنود الفلسطينيين، انظر على سبيل المثال: مجلة النفائس العصرية، المجلد 7، العدد 3 (9 آب 1919): 24؛ أكرم مسلم (تحرير)، يوميات خليل السكاكيني، المجلد الأول 1907-1922، نيويورك- النهضة الأرثوذكسية- الحرب العظمى- الانتداب وأسئلة الهوية (رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز خليل السكاكيني، ط2، 2026)، 852-853. ذكر أحمد العلمي أنّ الإنجليز أسروا خلال معاركهم بين بئر السبع والقدس حوالي 12 ألف مقاتل عثماني. انظر: أحمد العلمي، الاجتياح البريطاني لفلسطين (1917-1918) (القدس، دن، ط2، 1999)، 144.
- [7] إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس البلقاء، الجزء الثالث، عهد تطبيق النظم الحديثة (نابلس: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1961)، 149.
- [8] عارف العارف (-1892 1973): ولد في القدس. وكان رئيس بلدية القدس بين عامي (1949-1955)، ووزير الأشغال في الحكومة الأردنية في العام 1955، ومدير المتحف الفلسطيني في القدس في العام 1963، وهو مؤرخ متخصص في تاريخ فلسطين والمدن الفلسطينية.
- [9] سليم تماري، "مع ناقة الله في سيبيريا: عارف العارف في الأسر الروسي خلال الحرب العالمية الأولى"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد

76 (2008): 109-127.

- [10] المصدر نفسه، 1-15.
- [11] صبحي الخضراء (1895-1954): ولد في مدينة صفد، وعمل في جهاز الشرطة. أصبح مديراً لأوقاف عكا، ثم محامياً. اعتقله الإنجليز عدّة مرات لنشاطاته الوطنية. كان مديراً لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين العرب عام 1949. ومات في دمشق.
- [12] مصطفى العباسي، "صبحي الخضراء سيرة قائد من صفد"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 59 (2004): 41-53.
- [13] حسين الخالدي (1894-1962): ولد في مدينة القدس، وكان رئيس بلدية القدس بين عامي (1935-1937)، وعضو اللجنة العربية العليا والهيئة العربية العليا، ووزير سابق في الحكومة الأردنية. مات في السلط ودفن في القدس.
- [14] حسين الخالدي، *ومضى عهد المجاملات - ج1* (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2014)، 80.
- [15] من عادة الجيوش الحديثة إصدار تعليمات للجنود بكيفية التعامل مع العدو في حال الوقوع في الأسر.
- [16] اعتادت الجامعات المصرية استقبال الطلبة الفلسطينيين، خصوصاً جامع الأزهر الذي التحق به عدد كبير منهم قبل الاحتلال البريطاني لفلسطين.
- [17] أبو الإقبال سليم بن حسن اليعقوبي (1880-1941): ولد في مدينة اللد. درس في جامع الأزهر في مصر، وعُيّن مفتياً في يافا، وكان إماماً وخطيباً في مساجدها، كما أنه كان شاعراً، وعُرف بلقب "حسان فلسطين". وتوفي في الحجاز.
- [18] مهدي عبد الهادي، *موسوعة فلسطينيون* (القدس: الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية - باسيا، ط2، 2011)، 198.
- [19] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 490.
- [20] عمر البيطار (1880-1946): ولد في مدينة يافا. ورئيس بلدية يافا لعدّة سنوات، ورئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا. وشارك في تأسيس حزب الدفاع، وترأس اللجنة القومية في يافا أثناء ثورة 36. وسجنه الإنجليز أكثر من مرة لنشاطاته الوطنية.
- [21] *مرآة الشرق*، 16 شباط 1928.
- [22] *الموسوعة الفلسطينية التفاعلية*، شوهد في 5 شباط 2026. [رابطا-رمع/35544](https://www.palquest.org/ar/biography/35544) <https://www.palquest.org/ar/biography/35544>.
- [23] إحسان النمر، مصدر سبق ذكره، 150.
- [24] المصدر نفسه، 153-155.
- [25] عبد الفتاح درويش: ولد في قرية المالحه جنوب غرب القدس. وكان شيخ مشايخ قرى بني حسن في القدس، ومن المنخرطين في الحركة الوطنية زمن الاحتلال البريطاني. وأصبح عضواً في البرلمان الأردني، وتوفي في بيت جالا.
- [26] بيان نويهض الحوت (إعداد)، *أحاديث ومراسلات عجاج نويهض الحركة العربية (1905-1933)* (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2022)، 452.
- [27] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 699.
- [28] صالح عبد الجواد، "تأثير الهجرة الفلسطينية على ملكية الأراضي والزعامات المحلية"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 78 (2009):

93-92 ، 95-81.

[29] **مرآة الشرق**، 4 شباط 1920.

[30] كتب خليل بيدس مقالة مطوّلة نشرها في العام 1920، وكانت عن اعتقاله في نيسان في العام 1920، في أعقاب اندلاع ثورة العشرين، وأعمل حالياً على إعداد دراسة وافية عن هذا المقال.

[31] محسن محمد صالح، "موقف أهل شمال فلسطين من نهاية الدولة العثمانية وبداية الاحتلال البريطاني"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 63 (2005): 60.

[32] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 699، 855.

[33] محمد رفعت تفاعحة الحسيني (1860-1940): ولد في مدينة نابلس نقيب السادة الأشراف في نابلس، شيخ وشاعر. كان من مؤيدي العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان من وجهاء نابلس المعروفين، ومن المشاركين في المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس في العام 1928 للدّفاع عن الأماكن المقدّسة.

[34] إحسان النمر، مصدر سبق ذكره، 155. محمد نمر النابلسي (1870-1940): ولد في مدينة نابلس. ودرس في جامع الأزهر في القاهرة. وكان من وجهاء نابلس ومن مؤسسي حزب الدفاع الفلسطيني.

[35] سعيد الكرمي (1852-1935): ولد في مدينة طولكرم، عالم أزهرى وشاعر، سُجن أواخر العهد العثماني، واعتقله البريطانيون عند احتلالهم مدينة نابلس. وعمل مفتشاً للمعارف في طولكرم ومفتياً، وكان قاضياً للقضاة في الأردن في النصف الثاني من عشرينيات القرن العشرين. وقد توفي في طولكرم.

[36] المصدر نفسه، 155.

[37] صالح عبد الجواد، مصدر سبق ذكره.

[38] حسين الخالدي، مصدر سبق ذكره، 103.

[39] محسن صالح، مصدر سبق ذكره، 57.

[40] إحسان النمر، مصدر سبق ذكره، 153.

[41] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 699.

[42] للأسف لا نعرف الكثير عن هذا الدكتور سوى ما ذكره السكاكيني في يومياته، ويمكن أن يكون هو حبيب قطّان، الطبيب المشهور في حيفا.

[43] المصدر نفسه، 654 ، 663.

[44] الشيخ أسعد الشقيري (1860-1940): ولد في مدينة عكا. عالم أزهرى. وكان عضو مجلس المبعوثان العثماني، ومفتي الجيش الرابع العثماني، وأحد الوطنيين المعارضين لآل الحسيني، ومن مؤسسي حزب الدفاع الوطني في العام 1934.

[45] أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار، 1969)، 100-102.

[46] موسى العلمي (1897-1984): ولد في مدينة القدس. وكان عضو الوفد الفلسطيني لمباحثات لندن بشأن فلسطين في العام 1939. وهو ممثّل فلسطين في مؤتمر الإسكندرية في العام 1945. ومؤسس المكاتب العربية في لندن ونيويورك وواشنطن والقدس للدعاية للقضية الفلسطينية في العام

1945، ومؤسس المشروع الإنشائي العربي عام 1946.

- [47] جوفري فرلونج، **فلسطين بلادي... قصة موسى العلمي**، ترجمة أحمد العلمي (القدس: د. م، 2001)، 78.
- [48] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 699.
- [49] عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 10، 1990)، 100.
- [50] بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط3، 1986)، 89. ترى الحوت أن الجمعية تشكّلت من عناصر محلية لها نفوذ شعبي في أحيائها، ويعدّ بعضهم من القضايات، لكن الإنجليز تمكّنوا منها مبكراً.
- [51] نعمان حسين عرفات القدوة (ت 1935): ولد في مدينة غزة. وكان ناظر وقف حسين باشا مكي في غزة، وإمام وخطيب مسجد خانيونس.
- [52] عثمان مصطفى الطباع، **اتحاف الأعرزة في تاريخ غزة، المجلد الأول** (غزة: مكتبة اليازي، 1999)، 19.
- [53] عصام نصار وسليم تماري (محرران)، **القدس الانتدابية في المذكرات الجهرية- الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جهرية 1918-1948** (القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2005)، 283-285.
- [54] سعيد الشؤا (1886-1930): ولد في مدينة غزة، ومن أعيان المدينة، وكان رئيس بلديتها، وعضو المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.
- [55] رشد سعيد الشؤا (1889-1965): ولد في مدينة غزة. وكان رئيس بلدية غزة ومحافظها لعدّة سنوات. مات في لندن، ودفن في غزة.
- [56] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 811.
- [57] المصدر نفسه، 811.
- [58] المصدر نفسه، 811.
- [59] المصدر نفسه، 823.
- [60] حول علاقاته مع العثمانيين، انظر: الطباع، مصدر سبق ذكره، 51-53؛ أباهر السقا، **غزة التاريخ الاجتماعي تحت الاستعمار البريطاني** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2018)، 42؛ **مرآة الشرق**، 23 شباط 1928.
- [61] **مرآة الشرق**، 23 شباط 1928.
- [62] عمر الصالح البرغوثي (1894-1965): ولد في قرية دير غسانة القريبة من رام الله. وكان رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في منطقة رام الله، وشارك في العديد من الفعاليات الوطنية أثناء احتلال بريطانيا لفلسطين. وهو برلماني ووزير في الحكومة الأردنية، وتوفي في القدس.
- [63] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 826.
- [64] المصدر نفسه.
- [65] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 782.
- [66] المصدر نفسه، 823. يذكر الشؤا في مقابلة معه أن هربرت صموئيل هو من عفا عنه، للمزيد، انظر: **مرآة الشرق**، 23 شباط 1928.
- [67] المصدر نفسه، ص 811. كامل طاهر الحسيني (1867 - 1921): وُلد في مدينة القدس. وكان من أعيانها، وتولّى منصب الإفتاء فيها في

العام 1908، وعُيّن رئيساً لمحكمة الاستئناف الشرعية.

[68] ذكر إحسان النمر أنّ عزة باشا العابد توسّط لإطلاق سراح أسرى نابلس ومنطقتها، للمزيد، انظر: إحسان النمر، مصدر سبق ذكره، 155. أحمد عزت باشا بن هولوب باشا العابد (-1855 1924): ولد في مدينة دمشق. وكان مستشار السلطان عبد الحميد الثاني، وعضو في مجلس شورى الدولة العثمانية حتى العام 1908. وأصدر أكثر من جريدة بالعربية. وتوفي في القاهرة.

[69] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 187.

[70] **النفاثس العصرية**، مصدر سبق ذكره، 24.

[71] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 855.

[72] **مرآة الشرق**، 1 تشرين أول 1919.

[73] **مرآة الشرق**، 26 تشرين الثاني 1919.

[74] **مرآة الشرق**، 21 كانون الثاني 1920.

[75] الشيخ إبراهيم الدنف الأنصاري: كان من أئمة المسجد الأقصى، وهو والد الشهيد سامي الأنصاري الذي ارتقى في محاولة اغتيال الضابط البريطاني آلن سيكرست في حزيران/ يونيو 1936.

[76] خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 856.

[77] المصدر نفسه، 855.

[78] خليل البديري، مصدر سبق ذكره، 11-12.

[79] السكاكيني، مصدر سبق ذكره، 852-853.

[80] المصدر نفسه، 782.